



خطاب مولانا الشيخ رضي الله عنه

حولية 2010

الأربعاء 22 ربيع الآخر 1431هـ

الموافق 7 ابريل 2010م

كُلُّ رَاجٍ يَرْجُبُهُ لَا يَرُدُّ

بسم الله الرحمن الرحيم

الأحباب من كل مكان .. السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .. وبعد ..

الحمد لله بارئ الأرواح والنسم، ومقدر الأرزاق للأمم، القائل في محكم الكتاب ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾¹ والصلاة والسلام على خير الأنام كاشف الضر ومزيح السقام، أحمد الحمود المخصوص بالذات من الأزل إلى الأبد، فكل راج يرتجيه لا يُرد، القائل ﴿خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ﴾² والقرون ليس المقصود منها الأيام والسنون، ولكن يقصد بها من عاش فيها من آدميين، لأن الحضارة تكون في أسمى معانيها حينما يكون الخلق الكريم سيدا فيها، ومن غير الحبيب المصطفى ﷺ الممدوح بكلام الله العظيم في القرآن العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾³ وهو صاحب الرسالة الخاتمة الذي أجمل وصفها بقوله ﴿إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ﴾⁴ وتمام مكارم الأخلاق هي الحضارة بعينها، لأن المدنية والتقدم في العمران وما يتبعها من ترف في وسائل العيش والراحة، إذا كانت بلا أخلاق فهي الجاهلية بعينها، بل أن البداوة خيرٌ منها مع شطف العيش⁵ وكما قال المنبئ:

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بَطْطَرِيَّةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ

ولذا كان حضور الحبيب ﷺ في ذلك القرن مصحوبا بالأعلام من أهل بيته أواني الإمداد ذوى الهمم العالية، والرواد من الصحابة الكرام ذوى الأخلاق السامية، إعلاماً للخلق بدولة الحضارة الأخلاقية، التي انطلقت منها الحضارة العلمية فأنارت المشارق والمغرب.

ثم كانت الموالاتة بالقرن الذى يليه من التابعين والذى يليه من تابعى التابعين، فتزايدت الحضارة نضارةً بالسير على خطى السابقين، متبعين غير مبتدعين، فإذا تم فتح أرض جديدة، كانت الأخلاق الحميدة، أسبق من السيوف قتالاً ضد الجاهلية الأخلاقية،

¹ آل عمران 140

² البزار في مسنده.

³ القلم 4

⁴ السنن الكبرى للبيهقى وجمع الجوامع الصغير للسيوطى.

⁵ شطف العيش أى ضيق العيش.

وكانت العبادات وسيلةً للوصول لكل فضيلة، ولم تكن غاية، وإلا كانت البداية لطريق الغواية.

أيها الأحباب ..

يقول الحق سبحانه ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾⁶ قال الإمام ابن عجيبة في تفسيره: أى لا ينهاكم عن البر بهؤلاء المشركين وتقضوا إليهم بالعدل ولا تظلموهم، فإذا فهمنا الحق سبحانه عن الظلم في حق المشرك، فكيف في حق المسلم؟! ورؤى أن «قُتَيْلَةَ بنت عبد العزى» وهى مشركة جاءت زائرة بنتها «السيدة أسماء بنت الصديق» رضي الله عنها بهدايا، فلم تقبلها، ولم تأذن لها بالدخول، فترلت هذه الآية، بل وأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقبل الهدايا منها وتكرمها وتحسن إليها.

قال الإمام القشيري: مَنْ كان فيهم حُسن خُلق أو للمسلمين منهم رِفْق، أُمرُوا بالملاينة معهم، وشاهد هذه الجملة قوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ﴾⁷ وهذا فيما لا ضرر فيه للمسلمين.

وقال صلى الله عليه وسلم ﴿بُعِثْتُ بِمَدَارَاةِ النَّاسِ﴾⁸ وأورد البيهقي أن سهل التستري قال:

إن مداراتهم صدقة، ومداراة الوالد فريضة، ومداراة ذوى الأرحام سُنة، ومداراة السلطان طاعة، ومداراة أهل البدع مدهانة.

أيها الأحباب ..

انظروا إلى قول الحق سبحانه لسيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام، عندما ذهبا إلى فرعون وهو يدعى الألوهية، ورغم ذلك أمرهما سبحانه بملاطفته فقال ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾⁹.

⁶ المتحنة 8

⁷ انظر سنن الترمذى وابن ماجه وجمع الجوامع الصغير للسيوطى.

⁸ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان والسيوطى في الجامع الصغير.

⁹ طه 44

وقد عدَّ الإمام السهروردي في «الآداب» من رُخص الصوفية:
التكُلف مع أبناء الدنيا والرؤساء والسلاطين والقيام لهم، وحسن الإقبال عليهم،
والأدب في ذلك ألا يكون طمعاً في دنياهم، ولا اتخاذ جاه عندهم، فكان ﷺ يَدْخُل
عليه سادات قريش فيُكرمهم، ويُجلِّهم، ويُحسن مجالستهم، وبذلك وصَّى رسول الله
ﷺ حيث قال ﴿إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ﴾¹⁰.

وكذلك معاملة الملوك والوُلاة على هذا السبيل، فإذا عاملت الملوك والسلاطين بمعاملة
الرعية، فقد استخففت بحق السلطان، وكيف يجوز أن تستخف بحقه، وقد قال ﷺ
﴿السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ أَكْرَمَهُ، أَكْرَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَهَانَهُ، أَهَانَهُ اللَّهُ﴾¹¹ به
تَسْكُنُ النُّفُوسُ، وتُجْمَعُ الْأُمُورُ.

وكما قال سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ، صاحب الطريق الذي فتهدى بأنواره في دياجير
الجهل الأخلاقي (إذا جنتم بالأقوال وجاء العجم بالأفعال فهم أحق بمحمد منكم).

والأفعال هي التخلق بما جاء به الحبيب ﷺ، والأقوال إنما هي التشدق والتعلق بما قال
ﷺ، ولذا وجدنا سيدي فخر الدين مولانا الشيخ محمد عثمان عبده البرهاني ﷺ قد
رفع راية العلم مع الأخلاق جنبا إلى جنب، فما كان منه إلا قول عليم وفعل حلِيم،
وسار على دربه إمام حكيم، هو مولانا الشيخ إبراهيم ﷺ الذي قال في خطابه
السنوي عام 2003:

(وَمَنْ قَالَ أَنْ دَوَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْتَهَى بِانْتِقَالِهِ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَنَحْنُ هُنَا نُنْذِرُ الْأُمَّةَ بِبَعْضِ وِظَائِفِ الْحَبِيبِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي آيَةِ
وَاحِدَةٍ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّذِي نَزَلَ إِجْمَالُهُ وَتَفْصِيلُهُ عَلَى الْحَبِيبِ، وَمَنْ أَجَلَ الْحَبِيبِ،
إِذْ يَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وَدَاعِيًا إِلَى
اللَّهِ يَأْذُنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا¹² فالشاهد على الأمة كيف تصح شهادته على أمته وقد

¹⁰ أخرجه ابن ماجه في سننه والسيوطي في جمع الجوامع والبيهقي في شعب الإيمان.

¹¹ أخرجه السيوطي في جمع الجوامع والبيهقي في شعب الإيمان والمتقي الهندي في كثر العمال.

¹² الأحزاب 45، 46

انقطعت صلته بموته؟! ومن قال أن السراج المنير الذى يستمد نوره من النور الإلهي يُطفأ ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾¹³. أهـ

ولذا .. بدأت الحضارة الإسلامية في الإزدهار في ظاهر الأمر، بعد أن امتلأت القلوب والأرواح بالحضور الأخلاقي للأنوار المحمدية، ونضحت على الأبدان تصرفاً وسلوكاً. وخلاصة ما ذكره ابن خلدون قال:

بعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس، وبعض كتب الطبيعيات، فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها، وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقى منها.

وجاء الخليفة هارون الرشيد من بعد ذلك، وكانت له في العلم رغبة، فأوفد الرسل إلى ملك الروم، في استخراج علوم اليونانيين، وانتساخها بالخط العربي، وبعث المترجمين لذلك، فأخذ منها واستوعب، وعكف عليها النظار من أهل الإسلام، وحذقوا في فنونها، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها.

وكان من أكابريهم: أبو نصر الفارابي، وأبو علي بن سينا في المشرق، والقاضي أبو الوليد بن رشد، والوزير أبو بكر بن الصانع بالأندلس، وقد بلغوا الغاية في هذه العلوم، وقد أجزل الرشيد العطاء لكل كاتب يؤلف تأليفاً يفوق فيه عما وصل إلى أيدي الناس من العلوم المترجمة، فقد رصد وزن الكتاب بالذهب العراقي الخالص. أهـ وظهور الحضارة كما قلنا ليس وليد الصدفة أو الإجتهد بل لها قواعد تأسست عليها، ولنذكر بعض الأمثلة على ذلك:

لما قَدِمَ هارون الرشيد المدينة بعث البرمكي إلى الإمام مالك، وقال له: قل له احملى الكتاب الذى صنفته حتى أسمعه منك، فوجد من ذلك الإمام مالك واغتم، وقال للبرمكى أقرئه السلام وقل له: إن العلم يُزار ولا يزور، وإن العلم يُوتى ولا يأتي.

وذكر أن يهودياً كانت له حاجة عند هارون الرشيد، فلم يقض حاجته، فوقف يوماً على الباب، فلما خرج هارون وقف بين يديه وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين! فترل هارون عن دابته وخر ساجداً، فلما رَفَعَ رأسه أمر بحاجته فُقْضِيَتْ، فقيل له: يا أمير

المؤمنين، نزلت عن دابتك لقول يهودى! قال: تذكرت قول الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾¹⁴.

ومن تلك الأمثلة نرى كيف كان خُلق الرشيد مع القرآن بالرغم أن الذى أمره بتقوى الله يهودى، وكيف احترم عالم المدينة ورأيه وهو أحد رعاياه، هذا هو الخُلق الذى كانت به حضارة قلب الرشيد وروحه، فسمت الحضارة الإسلامية على يديه فى العلوم والصناعات والفنون، ولكن كيف السبيل إلى ذلك فى زماننا؟ فنجد السبيل فى كلمة لمولانا الشيخ إبراهيم رحمته الله حيث قال:

المشايخ هم الخبراء الذين يوصلون الناس إلى بر الأمان، وهم الذين يسوقون الأرواح إلى الملأ الأعلى، مع كل التوفيق فى حياتنا العملية.

فالمشايخ هم الذين يعطون المرید نوراً فى القلب الذى يستطيع أن يسير به فى ظلمات الأرض، كما قال تعالى ﴿أَوْمَنَ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ﴾¹⁵ فيترحل المرید إلى التنوير ثم إلى الكشف، كما قال تعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾¹⁶ ثم يترحل إلى الفتح ثم الفتح المبين، كما قال سبحانه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾¹⁷.

وهكذا عندما يتعلم المرید على يد شيخ مرشد، يفتح الله عليه بشتى أنواع العلوم الإلهية والمعارف الربانية، حتى يتعلم العلم اللدنى الوهبي .. وقد قال أحد الصالحين: أخذتم العلم من ميت عن ميت .. أما نحن فأخذنا علمنا من الحى الذى لا يموت.

وكما قال سيدى فخر الدين رحمته الله واصفاً شيخه الدسوقى أبو العونين:

إِنَّهُ الْمَأْمُولُ عِنْدِي سِرُّهُ كُلُّ رَاجٍ يَرْتَجِيهِ لَا يُرَدُّ

فإن كان هذا هو مفهوم الحضارة، فما الذى يهوى بالإنسان من قمم الحضارة إلى قاع التخلف؟

¹⁴ البقرة 206

¹⁵ الأنعام 122

¹⁶ ق 22

¹⁷ الفتح 1

إن المتأمل للتاريخ البشري، يجد أول جريمة بسبب رغبة قابيل في أخذ ما ليس من حقه بالقوة، وهو اعتداء على حقوق الآخر، وكان هذا الآخر أخيه هابيل، وكان أول اعتداء على الحقوق في تاريخ البشرية.

وفي ظل التشابك في الموضوعات والقوانين الدينية والمدنية، وفي ظل اختلاف القيم والعادات والتقاليد والأعراف الحديثة، اختلط الأمر على الناس ليس في تطبيق القانون فحسب، بل في طرق الإثبات، بل في تجريم الفعل ذاته.

ولكن الفطرة السليمة تأبى الظلم، وتأبى أخذ حقوق الغير، من مالٍ أو نفسٍ أو بدنٍ بالقوة، أو الإعتداء عليه نفسياً أو بدنياً، سواء بالقوة أو التحايل، وتلك دائرة ثابتة المركز وتُسميها (الإنسانية) ومهما طال القُطر أو قصر أو اختلف، فإنك داخل محيط الدائرة ذاتها، كاختلافنا في التفاصيل أو الأولويات، ولكن المبدأ لا خلاف عليه، كقتل النفس أو تعذيب الطفل أو الاعتداء على النبات والحيوان.

وتزامناً مع تطبيق النظريات وعمومها ظهرت الفجوات، فحاول أصحابها إيجاد حلول واهية بالتحدث والتشدد بحقوق الإنسان، وحقوق المرأة وحقوق الطفل، إلى آخر تلك الحقوق التي نظموا لها الدساتير وأسسوا لها المنظمات، ولكنها بمثابة السُم في العسل، فمنظمات حقوق الإنسان كان الخصم فيها هو الحكم، يفرق بين إنسان وإنسان آخر، وحقوق المرأة لا يقابلها حقوق للرجل، وحقوق الطفل في الرضاعة الطبيعية يقابله حق المرأة في إرضاعه صناعياً إذا خافت على جمالها وأناقته، فأى حقوقٍ تلك التي أعطت الإنسان كفالة كلب والإنفاق عليه بدلاً من كفالة يتيم.

ولكننا نقول كما قال سيدي فخر الدين رحمته الله الحق واحد هو (الحق في الله) ليس هناك حقوق للمرأة أو الإنسان أو الحيوان، فتجزئة الحق هروب من حضارة الأخلاق، أنظروا إلى حق الجار الذي قد يكون على دين غير دينك، أو على خلاف معك لأى سبب من الأسباب، فكل هذا لا يمنعك من تأدية حقه، وقد قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم **﴿أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته، وإن استقرضك أقرضته، وإذا افتقر**

عدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات اتبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيبته¹⁸.

هذا هو حقه في الله بغير علة ولا سبب، لأن العلل والأسباب قد تنفى الحق وتعطيك العذر بعدم قيامك بهذا الحق، كما قال الإمام فخر الدين رحمه الله:

وَبَصُغُرُ فِي عَيْنِ الْأَكَابِرِ كُلِّ مَنْ يُكَابِرُ جَهْلًا فِي شَرَائِعِ رَبِّهِ

وقد قال مولانا الشيخ إبراهيم رحمه الله في خطابه عام 2001:

اخواني .. اخواتي .. أبنائي وبناتي ..

ونحن نعبر إلى الألفية الثالثة .. إلى عصر العولمة الثقافية حيث زوال الحدود أمام الفكر الإنساني، وزوال سيطرة الدولة وسيادتها على الثقافة والعلوم، فإننا نجد أن مواجهة الغزو الفكري، وإدارة عمليات الحوار الثقافي والحضاري، تتطلب نهجاً دقيقاً ومنتقناً، يُمكننا ليس في مواجهة ذلك الغزو الفكري فحسب، وإنما يعمل على تنظيم بعثاً حضارياً، يعكس الهدى النبوي الشريف ليزيل أستار الظلام في تلك الأصقاع من العالم، ويؤسس لبناء عالم تسوده المحبة والألفة والعدل ... أهـ

ونحن إذ نضرب الأمثلة من الهدى النبوي للوصول إلى البعث الحضاري، لتوحيد الحقوق لتصير حقاً واحداً، هو (الحق في الله) للوصول بالأخلاق إلى مرتقى الحضارة الحقيقية وإزالة غمة الجهالة المستترة بالمدينة الزائفة.

فَعَنْ سَيِّدِنَا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ ﴿دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ﴾¹⁹.

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ﴿بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فترل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي، فترل البئر

¹⁸ أخرجه السيوطي في الجامع الصغير.

¹⁹ انظر صحيح البخاري ومسلم وابن ماجه في سننه.

فملاً خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال ﷺ في كل ذات كبد رطبة أجر²⁰.
 أليست هذه الحقوق مجتمعة للإنسان والحيوان بل وفي كل ذى كبد رطب في صعيد واحد، وانظر إلى التابعين كيف كانوا يطبقون تلك الحقوق.
 فيها هو سيدى أحمد الرفاعى ﷺ قد ترك الطريق السهل الممهد لكلب وسار في الوحل، ولما سأله مريدوه لما فعلت ذلك؟ قال لهم (من ظن أنه أفضل من الكلب فالكلب أفضل منه).

كما أن الحبيب ﷺ كان يسأل أسرى الحرب أن يفتدوا أنفسهم من الأسر بأن يعلموا أحد المسلمين القراءة والكتابة، التي هي بداية الرقى والحضارة والتعامل السليم بين الناس، الذى جعل الأسير والمخرب السابق يعلم من أسره، فتنشأ بينهما علاقة على أساس من المودة وعرفان الجميل، ويمحى ما كان بينهم من عداوة وبغضاء.
 ولقد أظننا زمان اختلط المعقول بالمنقول فحار أرباب الألباب، فذا شح مطاع وهوى متبع وإعجاب كل ذى رأى برأيه، كما قال سيدى فخر الدين ﷺ:

مِنْ عَجِيبِ الْعُجَابِ فِي أَهْلِ عَصْرِي أَنْ مَنْ يَجْهَلِ النَّصِيحَةَ يُسَدِّي

ولكن النصيحة لله ورسوله والعظة والعبرة لمن اتعظ واعتبر، ما الحب سهل والتمحيص سنة الله في خلقه، حتى الأنبياء والرسل، فسيدنا يوسف عليه السلام قد مرت عليه إمتحانات عديدة، فمن الحب، إلى فتنة زوجة العزيز، إلى السجن، حتى جاء خروجه من السجن، للإستعداد لتمحيص السبع العجاف، التي سوف تعصف بأقوات الناس، ولذا استعد من أيام الرخاء لأيام الشدة، وأعد لها العدة بصبر وجلد وتوكل على الله، فمرت عليه السبع الأولى في الإعداد للسبع العجاف التي استطاع أن يعبر بالناس فيها دون أن يقنط من رحمة الله، فالقنوط من الرحمة يؤدي بمن لا عقيدة له إلى الإنتحار هرباً من سئ إلى أسوأ، أما المؤمنون فيشمررون عن سواعد الجد بالذكر والصلاة على الحبيب وحسن الإعتقاد في الله ورسوله، ومشايخهم الذين انتشلوهم من غياهب جب

²⁰ انظر البخارى ومسلم وابن حبان.

الغفلة ومن دياجير الجهل إلى منابع العلم والذكر، بدلا من أن ينسب إليهم عيوبه وأخطائه وفيه يتحقق قول الإمام الشافعي رحمته الله:

نَعِيبُ زَمَانِنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَمَا لِرَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

وليعلم الجميع أن قول الحبيب رحمته الله حق، وهو مزلتنا إلى الله الحق، وأن المرید الحق هو المؤمن الحق، كما أخبر الحبيب رحمته الله ﴿الإيمان نصفان نصف في الصبر ونصف في الشكر﴾²¹ أى أن الضجر ليس من صفات المؤمن بل إنه من سوء الظن والعياذ بالله، وسوء الظن يؤدي بصاحبه إلى نكران الجميل كما قال الحبيب رحمته الله ﴿من لم يشكر الناس لم يشكر الله﴾ ويقول الإمام فخر الدين رحمته الله:

أَلَا إِنَّ نُكْرَانَ الْجَمِيلِ كَبِيرَةٌ كَذَلِكَ دَعْوَى الْعِلْمِ أَقْبَحُ تَرَّةً

ولذا نرفع بأكفٍ ضارعةٍ وقلوبٍ خاشعةٍ خاضعةٍ (حسن الظن بالله) شعارا لنا ملؤا أفئدتنا، فنضح ألسنتنا به بين اخواننا وأهلينا، فالوهاب يعطى بلا حساب ولا أسباب ولتكن البشرية فرجا لهمومنا ورفعاً لهممنا.

أحبابنا في الله ..

لقد سمي الإمام فخر الدين الصوفية (أهل الله) لأن انشغالهم بالله كان ميزة لهم، كاشتغال أهل التجارة بالتجارة وانغماسهم فيها حتى سُموا بالتجار، فالتسمى بـ (أهل الله) يوجب علينا أن يكون تخلقا وليس تعلقا، فالتخلق يوجب عليك أن تكون مجتهدا في كل صنوف العبادات، من صلاةٍ وصيامٍ وذكرٍ وتلاوةٍ للقرآن، وقيام السحر للتعبد، فالكيس من دان نفسه، كما قال رحمته الله ﴿الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت﴾²² وكذلك المعاملات من حسن أدب ورحمة في تعامل وعون لكل من قصدك، بغض النظر عن نسبه ودينه وجنسه.

واعلم أنك حين تلاقى ربك تُسأل عن شبابك فيما أفنيت، فتجهز وشمّر ساعدك قبل فوات الأوان واعمل لدنياك لتحصيل قوتك، ولا تنظروا إلى من هو أعلى منك في

²¹ البيهقي في شعب الإيمان.

²² أخرجه الترمذى وابن ماجه والبيهقى في سننهم.

المعيشة كى لا تسخط نعمة ربك، ولتعلموا أن خدمة الأهل والحي والمجتمع هو من أساس الدين، فلا تبخلوا على مجتمعاتكم بصحتكم ووقتكم فإن رفعة البلاد تقوم دائما على سواعد الشباب، ولا تمنعكم بعض الظروف السياسية أو الاقتصادية من العطاء لمجتمعاتكم فإن ما تبنيه اليوم فلا شك أن ولدك وحفيدك ممن يسعدُ بما بناه سواعد الأباء والأجداد، ويقول سيدنا رسول الله ﷺ ﴿إِن قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرَسَهَا فليغرسها﴾²³.

وليعلم كل من اختصه الله بخدمة هذه الطريقة بماله أو بوقته أو بنفسه، أن هناك ثوابت للخدمة أهمها (نكران الذات) فالفلاح كل الفلاح في نكران الذات، وليحمد المولى سبحانه على استعماله في الخير دون غيره من الآلاف بل والملايين، ولقد ضرب مشايخنا المثل الأعلى في هذا المضمار، فالتصوف في الماضي كان يقوم على أخذ العهد والإرشاد مباشرة من شيخ الطريقة، ولكننا نجد العجب كل العجب في طريقة (محض الفضل) التي لا تشترط على المرید أى شروط، غير الاجتهاد في الذكر والصلاة على الحبيب، ورفعت كل التكاليف عنه غير الاحترام المتبادل، والأدب مع شيخه تأدبه مع والده بغير تكلف، بل وأعطت المرید الذى أخذ عهده حديثاً أن يعطيه لغيره ويرشده فيما أخذ من أوراد.

ولذا .. فإن (حب التراسُّ والظهور) مرض بغيض وآفة من آفات الشيطان، كما أن (حب الرياسة) يجعل الإنسان يمد أطرافه كالأخطبوط ليستحوذ على ما في أيدي الإخوان من مجالات الخدمة، فلا هو يُحسن العمل المنوط به، بل ويُعرقل باقي الأبواب، فيجانب بفعله الصواب.

ولكن الأفضل أن يقوم خير قيام بما بين يديه، ليتقنه وينافس منافسة شريفة مع باقى المجالات الخدمية، لتظهر الطريقة في أسمى حللها، لأنه نسيج منها وليس كل نسيجها، بل هو جزء صغير متقن يؤدي إلى الانسجام التام مع باقى الأجزاء الخدمية، لكن من تدخل في أمرٍ لم يُوكل إليه فإنه نعمة شاذة ونسيج غير منسجم، ولكن التناصح في الله

²³ انظر مسند أحمد والبخاري وكتب العمال وجمع الجوامع.

باب غير مسدود لتعين أخوك على أداء خدمته بتلطفٍ غير تسلطٍ وبشحن العزائم لا بتثييط الهمم وتدبير المكائد.

إخواني وأخواتي .. أبنائي وبناتي ..

لقد رفع رسول الله ﷺ شعار ﴿أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب﴾²⁴ في غزوة حنين، وكان بعده الصحابة في غزوة اليمامة الذين رفعوا شعار (وا محمداه) حتى حققوا النصر، ونحن بمضى السنين كان أول ما رفعناه شعاراً وارتفعنا به مساراً الاسم (الله) لنستبين الطريق للسير إليه، فهو الغاية لكل السالكين على هدى سيد الواصلين والمرسلين .. وكما أعلمنا وأعاننا أبو العونين ﷺ بإرشاده أن (العلم بالذکر لا ينفك مُقْتَرِنًا) فكان عطاءه سيدي فخر الدين ﷺ يغرد ويردد (العلم شأني والمعلم قُدوتي) فكان السير خلف القدوة بالعلم والذكر حتى صرنا (بما جاء النبيُّ غداً هوآنا) ولما عدا العادون وأنكر المنكرون فكان منا الصفح الجميل، لأن (إمامنا المصطفى والصفح شيمتنا) فأفاض الله علينا من فيض فضله، ومداد كلماته ف (منح المصطفى وتم العطاء) فانتشر الطريق وازدهر، وازداد إقبال الناس ولم ينسوا يوماً أن (قوام طريق القوم حُبٌّ وطاعة) والعبادات والمعاملات تؤسس على النية فإنما الأعمال بالنيات (والدين عند الله حُسن المقصد) وحتت القلوب إلى الحبيب فتجهزنا والإبل كثير، وفي كل مائة، راحلة (وإلى رسول الله شد رحالنا) وما العيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة، هكذا قال ابن رواحة ﷺ وبالفعل (عاش رعداً من سعي نحو الحمى) وقد أردنا بها وجه الله الكريم في ظل ﴿واصبر نفسك﴾²⁵ فصارت (لا تغيب الشمس عن عود لنا) وصار (وكل نور لنا من نوره قبس) وكان الفرح بفضل الله، كما كان فرح شيخنا بعدها بلقاء الله، بعدما تلظى بأسماء الصفات فـ (بفضل الله يفرح كل عبد) وكما وصف الحبيب آل محمد آل الصفا والوفا، فعلى النهج نسير بوصفه (عباد الله قوم في صفاء) فكان صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا بل نور فوق نور (كل شعاع من بنى النور واصل) وكما أخبرت ياسين، فلا زيتون وتين، ولا طور

²⁴ أخرجه الشيخين البخاري ومسلم والبيهقي في شعب الإيمان.

²⁵ الكهف 28

سيناه بل (رَبُّ رَحِيمٍ رَبُّهُ سَمَاءٌ) وبأهل بدر الذين اطلع عليهم ربهم وقال لهم: لكم ما شئتم مع غفرانا (إِلَّا الْمَوَدَّةَ مَا سَأَلْنَا حِينَئِذَا) أو ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾²⁶ والحبيب تَكْتَفُنَا شَفَاعَتَهُ (اللَّهُ كَافٍ وَالنَّبِيُّ كَفَانًا) وقد قال الحبيب لصاحبه ﴿زَاهِرًا بَادِيَتِنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ﴾²⁷ وحقا (حَضْرًا حَلَّ كَمَّ بَدَا بِيَوَادِي) وكل ما كان من خير وبر وكل ما نرتجى من جود وعطاء، إنما هو بفضل حلال العقد فهو المأمول عندنا وسره عند شيخنا أن ..

كُلُّ رَاجٍ يَرْتَجِيهِ لَا يُرَدُّ

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ... وكل عام وأنتم بخير



²⁶ الزمر 36

²⁷ البيهقي في السنن الكبرى والسيوطي في جمع الجوامع.